

الحروب وبناء الأمم

فاطمة الحسن

(طالبة دكتوراه في العلوم السياسية/ جامعة محمد الخامس السويسي - كلية الحقوق - سلا)

fatmaelhassan@hotmail.com

هذه المقالة هي محاولة لفهم ما تسببه الحروب من دمار وتخطيط لبعض الأمم من جهة، وكيفية نهوض دول كقوى عسكرية أو سياسية أو اقتصادية بعد حروب عانت منها أممها من جهة ثانية، وهي محاولة سيتخللها عقد مقارنات سريعة مع تجارب الحروب التاريخية في عدة دول، بهدف تصنيف نوعية الحروب، أسبابها والآثار الناتجة عنها.

هل الحروب وحدها تبني الأمم؟

لعل رؤية ما عليه أهم وأقوى الأمم من نجاح بعد اجتيازها لحروب فتاكة، كأهم دول الاتحاد الأوروبي أو الولايات المتحدة الأمريكية، تجعلنا نقول أن نقطة نهاية ويلات الحرب التي عانت منها مثل هذه الأمم، هي في نفس الوقت نقطة بداية التأسيس لأقوى الأمم.

لقد أسست هذه الدول المتطورة والقوية نفسها عبر تطوير "قدراتها الإدارية" وتوظيف مواردها وكسب ما يكفي من الناتج الإجمالي الوطني لاستثماره من أجل الإصلاح والتصدي لمواجهة عواقب الحرب الوخيمة والدمار الناتج عنها¹.

غير أن هناك من الجماعات، من لا يستمد قوته من جهود خاصة بذلها وإنما من قرارات اتخذها المجتمع الدولي. ولعل من أهم الأمثلة الدالة على ذلك، هو قرار تأسيس إسرائيل من طرف القوى العظمى التي ارتأت أن اغتصاب أمة وأرض وحضارة ودولة وتاريخ بالقوة واستبدالهم لصالح سكان جدد، قد يصب في مصالحها داخل منطقة الشرق الأوسط.

وتجدر الإشارة إلى أنني أتكلم هنا عن استبدال أمة بسكان، لأنه لا يمكننا وصف السكان الصهيانية في فلسطين بأمة بحجة أن لفلسطين قدسية ومكانة دينية عندهم، نظرا لعدم انتمائهم لا لحضارة واحدة ولا لإقليم مشترك ولا لأصل وطني واحد قد تقاسموه تاريخيا. إن استقدام أناس من مختلف بلدان العالم ووضعهم في أرض لم ينتموا إليها تاريخيا قبل نكبة 1948، لا يمكن أن يؤسس لأمة ولا لحضارة ولا لتاريخ ذو مصداقية².

لقد تمت الحيلولة دون أن يؤسس الفلسطينيون دولتهم بالرغم من أن القانون الدولي ذاته، هو ما تم الاستناد إليه من قبل الأمم المتحدة في الاعتراف بإسرائيل كدولة، وهو قرار يؤكد أن للفلسطينيين حقا مماثلا في تأسيس دولة لهم.

أجدني أميل في هذه المقالة إلى دراسة الفرق بين الحرب العادلة³ والحرب غير العادلة حتى يتأتى لي فهم كيف تستطيع حرب تأجيج الشعور القومي أو على الأقل الوطني لأمة معينة بما يمكن هذه الأخيرة من الانتصار في حربها ولو على الصعيد السياسي إن لم يكن على الصعيد العسكري، وبالتالي المضي قدما بشعبها نحو الحرية والتطور ومواجهة جميع أنواع الدل والهيمنة التي قد يفرضها الطرف

1 . « Only War builds Nations », Foreign Policy », sept/oct 2002, n° 132, p 18.

2 . Jean -Baptiste Duroselle, « Paix et Guerre entre les nations : la théorie des relations internationales selon Raymond Aron », revue française de sciences politiques, 1962, volume 12, n° 4, pp 106-110.

3 . انظر دكتور نصار عبد الله، "مدخل إلى نظرية الحرب العادلة"، دراسات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1993، ص 9-44.

المعتدي. وبالتالي فإن الحرب تعتبر مفهوماً جدياً معقد يجب البدء بتصنيف مضامينه وأهدافه حتى يتأتى لنا تصنيف نظرية الحرب. وقد ارتأيت لتنفيذ النقاط التي تكلمت عنها في التقدم الأول، بتبني التصميم التالي.

1. مفهوم الحرب:

تعرف الموسوعة السياسية مفهوم الحرب على أنه مفهوم يرتبط "باستخدام العنف والإكراه كوسيلة لحماية مصالح أو لتوسيع نفوذ أو لحسم خلاف حول مصالح أو مطالب متعارضة بين جماعتين من البشر". أما المنظر العسكري الألماني كلاوزفيتز⁴، فإنه يعرف الحرب على أنها "امتداداً للسياسة بوسائل أخرى وعمل عنيف يقصد منه إجبار خصومنا على الخضوع لإرادتنا"⁵.

أ- نظرية كلاوزفيتز:

لقد سخر كلاوزفيتز من النظرية القائلة "بالحرب دون إهراق للدماء" قائلاً "لا تحدثونا عن قادة يتنصرون دون سفك دماء". فالحرب صراع أفراد وأنانيات وإرادات، إنها في تفسير كلاوزفيتز مسألة حتمية.

و يشير كلاوزفيتز في كتابه "عن الحرب"⁶، إلى أن عامل الشراسة والعدوانية والعنف يبقى عاملاً مهماً جداً. فالعنف هو القاسم المشترك لكل حرب هو كل شيء وهو الحرب نفسها إن افتقد هذا العنصر اختل مفهوم الحرب.⁷

وإرادة العدو هي صراع إرادات. حتى أن إنشاء القوات المسلحة مجرد وسيلة واستخدامها يبقى هو الهدف. بل هو يرثى لحال النفوس الطيبة، ويشير إلى ضرورة إهراق الدم. لأن الحرب قضية خطيرة، والأخطاء الناتجة عن طيبة النفس هي أسوأ الأخطاء.⁸

إذن الحرب في تعريفها الأوضح هي عمل من أعمال العنف.⁹ والحرب لها علاقة وطيدة بالنية العدوانية الكامنة في الطبيعة البشرية¹⁰ وليس لدى كلاوزفيتز متزلة بين المتزلتين إذ على القوات المسلحة إما "أن تحمي الدولة أو تحتل بلاد العدو". ليس هناك مكان للسلم،¹¹ ليس هناك سوى وسيلة هي "القتال"¹².

4. الجنرال كارل فون كلاوزفيتز. ترجمة: أكرم ديري والهيثم الأيوبي، الطبعة الثانية 1988، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.. ولد كلاوزفيتز عام 1780م، في بورغ، عمل مدرسا للجيش البروسي، انتسب إلى الأكاديمية العسكرية في برلين عام 1801م، عمل مرافقاً عسكرياً للأمير أوغست البروسي، فجرح وأسر. ساهم في كل المعارك التي كانت ضد نابليون. ورفض استسلام بلاده للفرنسيين. وساهم في تعديل الخطة الروسية للدفاع عن البلاد أمام الغزو النابليوني... مات متأثراً بالكوليرا في "براسلاو"، عام 1831م.

هناك ترجمات لكتابه تراوحت بين "في الحرب"، و"عن الحرب" مثل الترجمة والتحقيق لـ "سليم الإمامي". شرع في كتابة كتاب "في الحرب" منذ سن 24، إنه مشروع عمر، ضمنه تأملاته وملاحظاته من خلال التنظير والممارسة، وبدل جهداً كبيراً في دراسة وتحليل مختلف جوانب الحرب. ولقد نشر الكتاب أول مرة سنة 1832م بالألمانية. ورغم أنه يشير لعدم ضلوعه في الفلسفة، فإنه مع ذلك يقدم لنا فلسفة عن الحرب. العنوان في حد ذاته ثورة في وقته، لأنه تجاوز مفهوم العناوين التقليدية كـ "فن الحرب"، بل الحرب أصبحت أكثر من مجرد فن، لأنها أكثر ارتباطاً بالحياة الاجتماعية والسياسية بل ونتيجة لها وتأثير مباشرة بها.

والكتاب غني بالأمور التقنية والمباشرة حول المؤسسة العسكرية نفسها لكننا نبتعد من الانسياق إليها متوخين الحفاظ على مركزية التفكير في الأفكار الأساسية والعامية عن فكرة كلاوزفيتز عن الحرب كظاهرة وكعلم وكنصو وكفلسفة. ويبدو أن كلاوزفيتز كان يستمتع بالمعركة والحرب لذلك كان مبدعاً. صحيح أن المعلومات تتقدم كما هو معلوم، لكن الإضافة التي أضافها للفكر العسكري كانت مهمة، فلسفة جديدة للحرب.

5. موسوعة السياسة، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى 1981، ص 170.

6. عن الحرب. كلاوزفيتز. ترجمة وتحقيق: سليم الإمامي، النشر: 1997، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت

7. الجنرال كارل فون كلاوزفيتز، مرجع سابق (ص 93).

8. الجنرال كارل فون كلاوزفيتز، مرجع سابق (ص 75).

9. الجنرال كارل فون كلاوزفيتز، مرجع سابق (ص 77).

حتى أن الهدنة في الحرب ليس الهدف منها إنهاء هذه الحرب بل لانتظار لحظة أكثر ملائمة لها¹³. ولا تتم إلا من أجل حساب الاحتمالات¹⁴. وبحساب الاحتمالات تستمد الحرب واقعيتها¹⁵.

إلا أن نظرية كلاوزفيتز ليست هي الوحيدة في تصنيفها لدوافع الحرب وأشكالها، إذ اختلفت آراء الباحثين في مجال التنظير إلى الحرب ولعل استحضار نظرية مهاتما غاندي عن الحرب قد يكون أكثر ملائمة من استحضار نظريات أخرى، لأن نظرية غاندي "للا عنف" جاءت مخالفة كلياً لما جاء به كلاوزفيتز. وبالرجوع إلى مقالة كتبها راجوهان غاندي عن جده مهاتما غاندي، والتي تتكلم عن نظرية السلم والعقيدة والحرب التي انتهجها غاندي، يقول راجوهان أن جده كان يفضل دوماً أن يقول "الحقيقة هي الله" عوض أن يقول "الله هو الحقيقة". ويرجع سبب ذلك إلى موت عديد من الشهداء في سبيل الله، ولم يسبق أن يستشهد أحد في سبيل الحقيقة.

نظرية غاندي:

إن الانفتاح الذي أبداه غاندي على المسلمين وتعامله الطيب معهم أدى إلى الاعتداء عليه بتاريخ 20 يناير 1948، من قبل متشدّد هندوسي لم ينجح في اغتياله. وقد صرح غاندي معقبا على ما أصابه قائلاً: "إياكم أن تكونوا أي أحاسيس معاداة أو كراهية ضد هذا الإنسان. (أي المعتدي) فبانفتاحي على المسلمين حسب أي عدو للهندوسيين". واستثناءً لما جاء في مقالة راجوهان، فقد أكد أن جده كافح خلال 60 سنة، للقضاء على الكراهية والعنف، سواء التي أبداها البريطانيون خلال استعمارهم للهند أو التي تجسدت فيما بين الهندوس والمسلمين. لتكون المفاجأة بعد ذلك اغتيال جده على يد أكثر المتشددين الأصوليين الذي لطالما حاول مهاتما غاندي دفعه نحو طريق السلم والتوافق بالتفاهم.

كما يعتبر الحفيد أنه لو بقى جده على قيد الحياة، لجاهد اليوم ضد الأيديولوجية الداعية إلى أن ديننا قد يهدد السلام والأمن الدوليين. وهنا يتساءل الكاتب نفسه، سليل العظيم غاندي: "هل يقتضي التأسيس الصحيح والعقلاني للسلم بالبدء من معاداة الأديان أو معاداة اثنيات أو أمم معينة؟". ويكمل راجوهان نظريته قائلاً أنه في وقت صراع الحضارات، كثيرون ممن ينتمون إلى العالم الديمقراطي، ينظرون بنظرة عدائية للمسلمين ويعتبرونهم خطرين بالرغم من أن كثيراً من الدول الغربية تتمتع بعلاقات جيدة ووطيدة تربطها بمجمل من رؤساء حكومات عربية ومسلمة. كما يستكمل راجوهان ملاحظاته بالتأكيد على أن الغرب عامة والولايات المتحدة الأمريكية خاصة، يرون أن الإسلام والإرهاب هما وجهان لعملة واحدة.

وبعد ذلك ينتقل الكاتب لدحض الأفكار السابقة باعتباره أن ما حدث من عدوان بين الفترة ما بين 1918-1914 والفترة ما بين 1939-1945، هو ما يسمى بالحربين العالميتين، الأولى والثانية. وهنا يصنف الحرب الأمريكية والغربية ضد الإسلام، ضمن الحروب العالمية، ويتساءل إذا ما كان الأمر يتعلق بحروب ضد شعوب مدنية؟

يرى راجوهان أن "الأطفال المسلمين يلعبون أيضاً". وفي نفس السياق، استعرض ما يمر على مخيلته من صور لوجوه مسلمة يتذكرها منذ نعومة أظفاره، كان خلال هذه الذكريات يرى المسلمين يصلون تارة سجوداً لله الخالق وتارة يرفعون أيديهم يدعونه سبحانه

10. الجنرال كارل فون كلاوزفيتز، مرجع سابق (ص 76).

11. الجنرال كارل فون كلاوزفيتز، مرجع سابق (ص 389).

12. الجنرال كارل فون كلاوزفيتز، مرجع سابق (ص 99).

13. الجنرال كارل فون كلاوزفيتز، مرجع سابق (ص 84).

14. الجنرال كارل فون كلاوزفيتز، مرجع سابق (ص 87).

15. الجنرال كارل فون كلاوزفيتز، مرجع سابق (ص 81).

وتعالى، وتارة أخرى يحملون جرحهم خلال الزلازل الأرضية، فيقول لنفسه؛ هل يمكن تصديق أن مثل هؤلاء البشر خطيرون؟. ويقول ختاماً "لا أستطيع تصديق ذلك"¹⁶.

وفي نفس السياق، فإن التبنّي الأمريكي لخطاب "الحرب على الإرهاب" واللغة البراغماتية التي تستعملها الإدارة الأمريكية، أصبحا يمثلان العاملين الأكثر تحفيزاً لكثير من السياسات (الغربية)، التي أصبحت تنتهج هذا التعبير للوصول إلى أهداف ومصالح معينة، تخضع عنها مفهوم جديد هو "القمع السياسي على الصعيدين الداخلي والخارجي" الذي مارسه الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك من خلال توريط نفسها في حروب لا تعرف أي معنى للرحمة أو للإنسانية، ما يعكس التناقض العالمي للقوة العظمى عالمياً، والتي تصدر مثالية في ترسيخ الدعائم الأمثل للديمقراطية واحترام حقوق الإنسان.

فكيف تعرف هذه القوة العالمية بعد ذلك شرعية داخلية، إذا لم تكن لها شرعية دولية باغتصابها لحكومات متعددة؟ فقد أكد الكثير من المعلقين السياسيين، أن التمادي الأمريكي هو الذي دفع بكثير من الشعوب العربية بمطالبة حكوماتها بالخاصة، وأن نفس التمادي أدى إلى جعل الاضطهاد الإسرائيلي الممارس في حق الشعب الفلسطيني أكثر تفاقماً.

إن الأهم من كل ذلك لا يتمثل في تسليط الضوء على خطاب الإرهاب الأمريكي أو الغربي، وإنما التمييز بين إرهاب الحروب الحديثة وإرهاب المناضلين. وهذا التمييز بمثابة التمييز بين "الحرب العادلة" و"الحرب الإرهابية"¹⁷. ولعل أبلغ شعار يعبر عن أهمية هذا التمييز هو قول الفيلسوف فيتجنشتاين: "لا تبحث عن معنى الاتجار بالموت، ابحث عن توظيفه".

2. أسباب الحروب وطرق توظيفها:

لتحليل ظاهرة الحرب وطرق توظيفها، يجب دراسة الأسباب المختلفة لشنها، فمنها أسباب فلسفية أو سياسية أو اقتصادية أو قانونية أو نفسية أو اجتماعية أو حتى تقنية. ويمكن أن تجمع ظاهرة الحرب أكثر من سبب واحد لشنها. وهذا الأخير ينعكس في تصريح مايكل والزر الذي يقول فيه إن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني يمكن النظر إليه على أنه أربع حروب متزامنة: "حرب حماس لتدمير إسرائيل، حرب إسرائيل دفاعاً عن إسرائيل، حرب إسرائيل من أجل إسرائيل كبرى، وحرب المعتدلين الفلسطينيين لإقامة دولتهم جنباً إلى جنب مع إسرائيل".

أما تصنيف الحرب فيكون بحسب دوافعها وأهدافها، فإما أن تكون لأسباب اقتصادية (تجارية أو مالية)، أو أسباباً دينية يتم تسمية الحرب من خلالها حرباً مقدسة. ويتم كذلك تصنيف الحروب بحسب اتساع رقعتها الجغرافية لأنه في حالة ما لم تتجاوز الحدود الوطنية للدولة فإنها تبقى حرباً أهلية (الحرب الأهلية اللبنانية أو الأمريكية بين 1861 و1865 بين الولايات الجنوبية والولايات الشمالية والحرب الأهلية الإسبانية بين 1936 و1939)، وفي حالة ما كانت ما بين دولتين فإنها تعتبر دولية إقليمية أو قومية محدودة (الحرب العربية الإسرائيلية الأولى في 1948 والثانية/العدوان الثلاثي على مصر في 1956 والثالثة في 1967 والرابعة/حرب 6 أكتوبر/تشرين الأول في 1973). أما إن كانت الحرب على نطاق عالمي فإنها تعتبر حرباً شاملة (الحرب العالمية الأولى والثانية).¹⁸

16. Article de Rajmohan Ghandi, « Ghandi : la religion, la guerre et la paix », traduction de Laurence Galopain, Journal : Réconcilier les différences, créer la confiance. Initiatives et changements », publié en 2012. <http://www.iofc.org/fr/node/44210>.

لمزيد من الشرح، انظر عباس محمود العقاد، روح عظيم المهاتما غاندي"، شركة فن الطباعة، اهداءات 1999، الإسكندرية.

17. طلال أسد، عن التفجيرات الانتحارية، ترجمة فاضل حنكر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى 2008، ص 7-8-9.

18. Jean –Baptiste Duroselle, « Paix et Guerre entre les nations : la théorie des relations internationales selon Raymond Aron », revue française de sciences politiques, 1962, volume 12, n° 4, pp 963-979.

وللتعمق في أسباب الحروب وفهمها بسلاسة، ارتأينا تقسيم أسائها إلى ثلاثة أسباب رئيسية، وهي الأسباب الاقتصادية والدينية والسياسية.

الأسباب الاقتصادية:

إذا دارت الحروب بين مجتمعات غير متساوية في القوة أو في المستوى الحضاري، فسوف تكون هذه الحروب استعمارية. وهكذا فإن إستراتيجية الدفاع التي تنتهجها الشعوب المحتلة ضد مستعمرها، تسمى الحرب الثورية، التي غالبا ما تكون طويلة الأمد. حيث أنه مع تكوين الدول القومية الأوروبية الحديثة وابتداء المرحلة الصناعية إبان القرن الـ 19، اتخذت الحرب طابع الأداة لتحقيق الغزو الاستعماري وللغسل في التنافس بين الدول الاستعمارية الأوروبية ذاتها. وهنا برز الفكر الماركسي الذي حلل ظاهرة الحرب على أنها انطلاقة شرارة ابتدأت من "دوافع اقتصادية"، أي أنها حرب لم تبتدئ بصراع بين الدول وإنما استهلكت بصراع طبقي انعكس على المسرح الدولي. وهكذا استنتج كارل ماركس أن الحرب بين الدول الرأسمالية المتصارعة وحرب الدول الاستعمارية هي حروب شنت بهدف "استغلال شعوب المستعمرات" لاستخدامها في إنتاج مواد الخام وكيد عاملة رخيصة. وبالرغم من ذلك، فإن الماركسية ليست مدرسة مناهضة للعنف فهي تدعو إلى شن حروب أسمتها "الحروب العادلة" ضد الحروب "غير العادلة". وحثت الماركسية على شن الحروب "العادلة" في سبيل محاربة الطبقة والامبريالية والقضاء على الرأسمالية¹⁹.

أ- الأسباب السياسية:

أما بلدان العالم الثالث، فإن خوضها الحرب ينشأ من رحم الشعور بالحاجة الماسة لمقاومة ذل الاستعمار، ومن هنا تأتي تسمية حروب التحرير الوطني التي شنتها الدول العربية على سبيل المثال لنيل استقلالها (كدخول الجيوش العربية لمصر وسوريا والأردن بالأخص، ومعها العراق ووحدات كويتية وجزائرية وسودانية الخ، في حرب لتحرير فلسطين في حروبها مع إسرائيل، أو حرب التحرير الجزائرية بين 1954 و 1962 أو حرب الاستقلال المغربية الخ). فقد نتج عن حروب التحرير الوطنية نتائج سياسية واقتصادية لتحرير الوطن من الاحتلال والنهب الأجنبي من الاستغلال الطبقي على يد الشركات الأجنبية. وهكذا يتحد العاملان القومي والطبقي بممارسة الكفاح الوطني المسلح مما يستنفر جميع طاقات وقوى المجتمع. ففي بلدان كبلداننا، سادت فكرة تأييد حق الشعوب في تقرير مصيرها والدعوة إلى احترام سيادة النظام الدولي انطلاقاً من تطبيق العدالة بين دول قومية متعاونة وفي إطار التضامن من أجل محاربة هيمنة الدول الاستعمارية والكبرى وبموجب الشرعية الدولية التي أقرتها كل من هيئة الأمم المتحدة ومؤتمرات عدم الانحياز²⁰.

ج- أسباب دينية:

فبعد تصنيف أشكال ودوافع الحروب، نلاحظ بالرجوع إلى تاريخ سيرورة الحروب التي ذكرنا أمثلة عنها، أن نتائجها على مختلف الأمم كانت مختلفة ومغايرة. ففي دراسة للباحث بروفيسور بنجامين بريدجمان من جامعة لويزيانا عام 2003 توصل إلي فكرة أن التقسيم هو نهاية صراع أعراق أو أديان أو أجناس. و هو تقسيم للموارد قبل أن يصبح تقسيماً للوطن. وهذا ما يؤدي إلى صراع بين من يغلب أي من يستطيع استغلال التقسيم لصالحه.

أي أن التقسيم يؤدي في بدايته إلى انسحاب رؤوس الأموال و الخوف من الاستثمار ومشاكل فنية وإدارية معقدة. فليس التقسيم في نهاية المطاف هو حسم للصراع بل أن ترديد أخبار عن تقسيم محتمل هو في ذاته تهديد للاستثمار الأجنبي وتردد بيوت المال في

19. موسوعة السياسة، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى 1981، ص 171-172.

20. Armelle le Bras-Chopard, La guerre, theories et ideologies, Montchrestien, 1994, pp 47-56.

الإقراض كما أنه يبعث برسائل عدم استقرار لجميع الذين يتعاملون مع دولة مهددة بالتقسيم.²¹ ففي وقت الحرب الباردة انقسمت ألمانيا إلى دولتين و هكذا كوريا. وفي وقت السلم والاستقرار توحدت ألمانيا التي انقسمت قبلاً بالحرب واستطاعت أن تلم شتاتها وتتوحد عن طريق الدبلوماسية الاقتصادية. وفي الوقت الذي انقسم فيه السودان المضطرب إلى دولتين شمالاً وجنوباً نجد أن أوروبا الموحدة قد نمت و ضمت دولاً جديدة. كما أن تقدم الكثير من التنازلات الصينية لأطماع وضغوط بريطانيا (الإعفاء الجمركي..) هو ما زاد من أطماع قوى أخرى كالولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا في الصين ودفعهم إلى المزايدة في فرض العديد من أشكال الضغط والذل على الحكومة الصينية. غير أن ذلك هو ما عزز الوعي السياسي والقومي لدى الصينيين اليوم. كما أن النضال المسلح والمستمر للشعب الفلسطيني هو ما جعل العالم بأسره يعترف بوجود شعب فلسطيني صاحب قضية وحق بعدما طال النكران الدولي للهيبة والوجود الفلسطيني. وبالوصول إلى هنا يقودنا الحديث إلى رغبة دراسة ما يترتب عن الحروب؟

3. آثار الحروب:

أ- آثار الحروب على الدول في طور النمو وكيفية مقاومتها/ التجربة الفيتنامية: مقارنة مع التجربة العربية:

لعل أهم تجربة لفتت انتباهي في أقوى أسلوب عبرت فيه أمة عن ريادتها في التغلب على الاستعمار بجميع رموزه الثقافية والسياسية والاقتصادية وحتى العسكرية وريادتها في التغلب على الذل وفي إرادتها وعزيمتها الحديديتين في النهوض بأمتها الفقيرة والضعيفة هي التجربة التي جسدها الأمة الفيتنامية.

فقد تابع المواطن العربي أخبار الانتصار الفيتنامي واستقلال أمتة سنة 1975 ما جعله يتذكر تشبيط عزيمته خلال هزيمة ال 67، ويفرح كل الفرح للمواطن الفيتنامي الذي بشكل من الأشكال تأثر لهزيمته. فالمواطن العربي الواعي ما إن يسترجع تجربته القومية المأساوية يحس هزيمة وذل أكبر بعد رؤية كيف أن شعباً ضعيفاً وفقيراً فقراً يزيد عن الفقر في الشعوب العربية، استطاع بالرغم من كل الصعاب، مواجهة أعنى قوة عسكرية وأكبر طاقة اقتصادية وأهم قوة تكنولوجية في العالم، وإجبار هذه القوة على الخروج من أرضه وترك الفيتناميين يحققون بحرية اختيار وحدتهم القومية وصقل ثورتهم الاجتماعية من أجل النهوض بمستقبل أمتهم والالتحاق بالركب المعاصر. ولعل ما نريد الاستفادة منه في هذه التجربة، أن كثيراً من الأوهام العربية يجب أن تتغير في مواجهة الصراع العربي-الإسرائيلي.²²

وفي هذا الإطار، تحدث ياسين الحافظ، الذي هو من أبرز المفكرين العرب الذين حاولوا طرح إشكالية "هضوية عربية جديدة"، عن ضرورة خلق "تطور فكري للشعوب يتلخص في انتقالاتها الطويل البطيء المتلاحق من الأسطورة والأيديولوجيا إلى الحقيقة الواقعية". حيث يندد المفكر بالاستسلام الفكري عند كثير من العرب الذين شعروا بمرارة الخسارة أمام خصمهم الصهيوني، مما دفعهم إلى التعلق بأيديولوجيات وهمية. وعليه فإن التحلل السياسي، يرى أنه وحده الخروج من سجن الأيديولوجيا والاندفاع نحو تحرير العقل عن طريق تقبل الواقع والوعي به كما هو، هو ما يمكن العربي من تحدي الإسرائيلي. حيث أن المفكر السياسي، ياسين الحافظ لا يشكك بحقيقة أن الأيديولوجيا يمكنها أن تعطينا أملاً، إلا أنه يعتبر أن الأمل ممكن أن يكون وهماً ينساق وراءه العرب، مما لا يحقق أي تقدم ولا ينتزع أي تحرر.

وهنا يوضح الكاتب سيرورة بحثه التي تتعمق شيئاً فشيئاً في أسباب هزيمة الأمة العربية أمام الصهاينة، بقوله أن أي حل يمكن انتزاعه لعلاج "أمة تعاني تأخراً تاريخياً"، فلا بد بأن يبدأ في تطوير ثقافته الثورية تطويراً يلحق-وعلى المدى الطويل- سائر بني المجتمع العربي،

21. أنظر مقالة جريدة كل المصريين، مقالة التقسيم وسينيه، أوليفر.

22. ياسين الحافظ، التجربة التاريخية الفيتنامية: تقييم نقدي مقارنة مع التجربة التاريخية العربية، دار الطليعة/بيروت، الطبعة الثانية، فبراير 1979، ص 29-

وعلى رأس هرمها البنية الثقافية والأيدولوجية. وأهم انطلاقة ثورية، بالنسبة للكاتب، هي تلك الانطلاقة الحازمة الراسخة التي انبعثت من صميم النقطة الصحيحة الملائمة التي يجب الانطلاق منها لتحقيق التقدم.

وإنني لأوافق الكاتب في تحليله هذا، إلا أنني أحب أن أضيف أن أي تقدم وانطلاقة يجب أن يسبقهما عزيمة على تحقيق وحدة عربية متجانسة اقتصاديا قبل أن تكون متجانسة سياسيا. كما أن هذه الوحدة لا يمكنها التحقق إلا بوحدة ثقافتنا العربية التي هي أصلا موحدة تاريخيا ويتم ذلك بالرجوع إلى ميراثنا العربي التاريخي والإسلامي العتيق، الذي أنصف اليهودي قبل إنصافه المسيحي، فكيف بنا إذن نعجز عن إنصاف تاريخنا المشترك وثقافتنا؟ كيف بنا نتناسى ما حققه المسلمون على مر العصور من انتصارات وصيت لامع يكن له العالم كل الاحترام والتقدير منذ فجر الإسلام؟ وكيف بنا نتهاون في المحافظة على هذا الصيت؟

وبالرجوع إلى التجربة الفيتنامية فقد استطاع هذا البلد الفقير المتخلف اقتصاديا، النهوض بأمنه واستغلال مساعدات الدول الاشتراكية استغلالا صحيحا ومثمرا. ولعل الفرق بين هذا المجتمع ومجتمعنا العربي، هو أن النخبة الفيتنامية تملك فكرا عصريا وتقدميا في نفس الوقت، تسوده أيديولوجيا تقدمية وثورية وحديثة تمت مشاركتها مع الشعب الفيتنامي على أوسع نطاق داخل كل طبقاته الشعبية. وبالتالي فإن الوعي الفيتنامي هو أساس مفتاح انتصاره. لأن تحرير الشعوب يبدأ بتحرير عقول شعوبها.

وقد بدا الوعي الفيتنامي حليا من خلال حربه الحديثة في فترة 1945 - 1954 ضد فرنسا وفي فترة 1959 - 1975 ضد أمريكا²³.

أما فيما يخص الوضع العربي، فقد أجمع المراقبون العسكريون على أننا كعرب، خلال أكثر من نصف قرن مرت على الصراع العربي - الإسرائيلي، لم نستطع شن حرب حديثة على الصهاينة، سواء أكانت هذه الحرب نظامية أم لا، أي "شعبية". ومن هنا يبدو حليا أن الاختلاف في المقاومة بين العرب والفيتناميين يكمن في اختلاف طريقة المقاومة ودرجة العزيمة على استكمالها بالرغم من توالي الهزائم. ففي البدء قام الثوار الفيتناميون بتأسيس حركة قومية تقليدية، وعند تحطمها أسسوا حركة مقاومة طويلة ضد الاستعمار، وعند تحطمها أيضا، حلت مكانها حركة قومية حديثة، تقدمية وغير تقليدية. وهكذا طور الشعب الفيتنامي نظريات مختلفة ومتطورة بحسب الحاجة لمفهوم المقاومة²⁴.

وهنا تكلم ياسين الحافظ عن النظرية المتطورة للمقاومة الفيتنامية، واصفا إياها، على أنها أصبحت مرجعا يمكن اعتباره كمقدمة ثقافية وإيدولوجية وسياسية حديثة.

ولعل ما سبق يشدنا أكثر نحو دراسة الرؤية الغربية للحرب. إذ تعتبر هذه الدول أن حروبها على الدول الغير متطورة، هو ضروري، لأسباب عدة، نكتفي من خلالها التطرق إلى مفهوم "شن الحرب على الإرهاب بما أننا درسنا مفهوم الحرب على الدين".

ب- حروب الدول القوية على الضعيفة: نموذج الحرب على الإرهاب.

23. ياسين الحافظ، التجربة التاريخية الفيتنامية: تقييم نقدي مقارنة مع التجربة التاريخية العربية، دار الطليعة/بيروت، الطبعة الثانية، فبراير 1979، ص32.

ولمزيد من التوضيح انظر:

- G. Boudarel, J. Chesneaux, N. Khac Vien, J- R. Clémentin, PH. Devillers. Tradition et révolution au Vietnam, Paris, Editions Anthropos, 1971.
- J. Chesneaux. Contribution à l'histoire de la nation vietnamienne, Paris, Editions Sociales, 1955.
- J. Chesneaux, Le Vietnam. Etudes de politique et d'histoire, Paris, Editions Maspéro, 1968.

24 انظر لمزيد من التوسع:

- M. Rodinson. Marxisme et Monde musulman, Paris, editions Seuil, 1972.
- Bref histoire du Parti des travailleurs du Vietnam, Hanoi, editions en languesz étrangères, 1970.

ومن هنا، ففي تمييزنا الأخير بين الحرب والإرهاب ومنه في التمييز بين الحرب العادلة والحرب الغير عادلة، يميل كثير من المحللين في النظام الدولي، ومنهم المدافعين عن تمييز الحرب عن الإرهاب- إلى تعريف الحرب "على أنها معركة ضرورية رغم كل وحشيتها المؤسفة"، بيد أن الإرهاب "يقتل المدنيين لأغراض سياسية في حين أن القوات المسلحة تحاول تجنب قتل المدنيين، وأن قانون الحرب- المعتمد لدى جيوش الدول والمهمل من قبل المتمردين- شكل من أشكال إضفاء الصفة الحضارية على بشاعة الحرب".

ونجد أن مفهوم العنف الإرهابي، استخدم كطريقة يعتمد عليها لمقاربة دور العنف في تأسيس المجتمع الليبرالي وإدامته. كما يبرهن على ذلك ارتباط تشكل المجتمعات الإنسانية الحديثة بنظرية التدمير المستمر للبشر ولأنماط حياتهم. كما أن البعض الآخر من الباحثين يرى أن في بعض الحروب الأهلية نفع قد يؤدي إلى صقل قوة الدولة و إلى تعزيز الوعي السياسي لدى أممها، ولعل أكثر مثال يدل على ذلك هو الحرب الأهلية الأمريكية التي ذكرناها سابقا.

وبالتالي انطلاقا من أسباب ماثلة، يستنتج طلال أسد، المفكر وعالم الأنثروبولوجيا في ميدان الحرب، أن هذا الواقع التاريخي والتطوري الذي عرفته المجتمعات المتطورة، يفسر لماذا ينتمي الإرهابيون الحديثون، إلى العالم الليبرالي والرأسمالي وإلى الدول الديمقراطية التي بررت شنها لحروب ضد الإنسانية. وهنا يؤكد نفس المفكر، أن القانون الذي يجرم الإرهابيين يجب أن يجرم الدول التي عمدت إلى شرعة "منطق العنف الكامن" وراء شن الحرب. لأن هذه الأنظمة الديمقراطية التي تحدثنا عنها تطلب من مواطنيها أن يكونوا على أتم الاستعداد للقتل أو للموت من أجل خدمة شعار مجرد تبنته دولتهم. كما أن خطاب الدولة يحث المواطنين على التضحية بأنفسهم لضمان استمرارية دولتهم. وبالتالي بات القتل والموت شرطا أساسيا لاعتناق الليبرالي، بما يقتضي هجر مبدأ اللاعنفي في سبيل الحرب "الضرورية". وبالتالي، فإن لكلا الطرفين، الإرهابي والليبرالية، ثقافة موت تميزه عن الآخر²⁵. وبالتالي فإن القصد من هذا التحليل لطلال أسد، هو دحض أيديولوجية "التفوق الأخلاقي" التي تتباهى به نظرية "الحرب العادلة" بينما تجرم أفعال "الإرهابيين".

حيث يرى نفس المفكر، وأنا أوافقه نفس الرأي، أن القسوة والوحشية التي تبديها بعض الدول من خلال حروبها التي تدمر فيها آلاف المدنيين والأطفال والبنية التحتية أو المدنية للدولة التي تحاربها، مع إيقاف الحياة الروتينية للمواطنين الذي يسعون نحو أرزاقهم الخ، هو مثال حي يدل على أن ما تفعله هذه الدول الحربية يفوق بكثير ما يفعله أو يستطيع فعله الإرهابيون. إذ يرى المفكر أن الأهم من الدوافع هو النتائج الملموسة. هذا مع التأكيد أن فظاعات الإرهابيين لا يجب أن تمر دون محاسبة أو تدقيق.

4. خلاصة.

للإجابة عن السؤال، هل الحروب وحدها تبني الأمم؟ نخلص أنه لا إجابة قطعية أو محددة في هذا الخصوص. إذ أن الحرب تستطيع من جهة، أن تكون مصدر الهام للأمة للنهوض من سباتها والرقى بحضارتها نحو الحرية والتطور الاقتصادي والسياسي والبنوي ومعايير الدولة كافة، كما حصل مع الفيينتاميين والولايات المتحدة الأمريكية. ومن جهة ثانية، يمكن للحروب أن تحطم أمة وحضارة أبت الرجوع إلى مجدها ومخزونها الثقافي للخروج من دمارها والتكيف مع الواقع بتوجيه نفسها نحو الصمود والعزم على الوقوف، كما حصل في العراق. ومن وجهة نظري، إن العزم على الوقوف بعد المعاناة من الحرب يرتبط أشد الارتباط، بالثقافة الوطنية داخل كل دولة.

25. طلال أسد ، التفجيرات الانتحارية، ترجمة فاضل حنكر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى 2008، ص 16، 17.